في ذكرى رحيل الأستاذ محمد الربادي الـ(32)

كان معلما متعلما
حناطا متثقفا
كاتبا يريد تغيير العالم بكلمة
(عبدالله البردوني واصفا محمد الربادي)

محمد عبدالوهاب الشيباني

المتفحص للتكوين الثقافي الباكر للراحل محمد علي الربادي (1936ـ 1993) سيجد أن إرث حركة الأحرار اليمنيين وتكوينات مستنيريها المعرفية والسياسية صارت جزءا مهماً من سيرة الرجل، الذي أصبح امتداداً واضحاً لها. وهو أقرب في تشكله الباكر لفيلسوف الأحرار وحكيمهم الريفي الشيخ حسن الدعيس، الذي يراه الدكتور عبد العزيز المقالح « واحدا من حكماء الشرق المنطلق من فكر الاسلام واشراقاته التصوفية، والباحثين في ذلك الفكر عن نهج عادل يضع حدا لما كان يعانيه مواطنوه المسلمون في شمال الوطن من اضطهاد وقهر في ديارهم التي تدعى بالمستقلة، ولما يعاني منه اشقاؤهم الواقعون تحت الاحتلال الاجنبي من تسلط واذلال».

تشكلت جمعية الاصلاح في مدينة اب في العام 1944 كأحد اشكال تنظيمات المعارضة الباكرة لحكم الامام يحيى حميد الدين واتخذت من الخطاب الثقافي بدرجة رئيسة وسيلة لإيصال صوتها المعارض الذي بدأ بالنصح الديني، وكان فيها الى جانب الشيخ حسن الدعيس القاضي عبدالرحمن الارياني والقاضي محمد علي الاكوع الحوالي والأستاذ عبده محمد باسلامة وغيرهم، وكانت مدينة اب وجامعها الكبير بطلابه ومصليه قد كوَّنوا صورة عنهم، بما فيها الصورة المعتمة التي حاول أزلام النظام وأبواق سيف الإسلام الحسن (أمير اللواء وقتها) غرسها وتعميمها في أذهان العامة من الناس.

الطفل الفقير شديد النباهة والذكاء، الذي كان يتلقى دروسه الباكرة في الجامع الكبير وملحقاته، على أيدي أحمد الضراسي ومحمد وهابي وعلي باسلامة وقاسم شجاع الدين كان يفتش عن الإجابة عن سؤال يكبر في ذهنه الصغير لماذا خرج هؤلاء عن طاعة ولي الامر كما كان يشاع عنهم لتبرير سجنهم واضطهادهم!؟ وحين اختصر الإجابة بالظلم والافقار والتجهيل الذي يجذره نظام الإمامة في حياة الناس، بدا يقتفي أثر هؤلاء في تعرية الظلم ومحاربته بالكلمة الصادقة في المنابر والمجالس والأسواق في نصف قرن عاشها تاليا.

يقول أحد أصدقاء الربادي القريبين ورفيق صباه الباكر محمد عبود باسلامة «أنه كان من أسرة فقيرة وكان أبوه شيخاً كبيراً يحتاج في أكثر الأحوال الى مساعدته في الدكان، الذي لا ضمار له فيها الا ثقة الناس به من المزارعين في بعدان وحبيش، جعلتهم يتخذون من دكانه محطة لما يوصلونه من القمح، الذي يتولى بكل أمانة وشرف بيعه لمن يصلون من لواء تعز لشرائه وتصديره ويكون له شيء رمزي، كان يستغني به.»

كان دكانه حينما زاره الأستاذ عبدالله البردوني في العام 1956ـ عامراً بهواء الثقافة، واذا جاءه مشترون كال لهم الحبوب بلا مساومة، وكأنه صار معهودا بالصدق من أول كلمة. كان يبيع ما اشتراه في نفس اليوم، فلا تنطبق عليه صفة تاجر حبوب، لأنه لم يختزن ولا يغالي اذا غالى الآخرون كما ذكر الزائر، كما استعاد ذلك بعد أربعين عاما حين كتب يرثيه.

وغير أنه كان يساعد والده في دكان بيع الحبوب، كان أيضاً كلما ضاق حال أسرته الكبيرة في فترات ما قبل الحصاد أو شحة الوارد من حبوب الفلاحين الى دكانه يمارس مهنة انتاج سُرج الاضاءة البدائية « القماقم» وتلحيمها، فصار يعرف باللحام والحناط « بائع الحنطة والحبوب».

في حالتي اشتغاله ببيع الحبوب وتلحيم السُّرج ظل دكان والده مفتوحاً لاجتماعات أصدقائه المثقفين ومطالعاتهم للكتب والمجلات التي تصل اليهم، حتى أن البردوني حينما زاره وجدهم يقرؤون في كتابين الأول لسيد قطب وهو كتاب « في ظلال القرآن» والآخر كتاب « الشعر الجاهلي» لطه حسين.

وفي الأول كانت تشدهم لغة قطب الأدبية في تفسير القرآن، ولم يكونوا قد قرأوا كتبه الأدبية والشعرية التي عددها لهم البردوني، وفي الثاني كانوا يبصرون في تمرد طه حسين على المؤسسة التقليدية (الأزهر) بإنتاجه مثل هذا الكتاب المجرّم من المؤسسة، والتي اضطرته لتغيير عنوانه الى «في الأدب الجاهلي» وتغيير بعض محتواه، لكن بعد أن صار متداولا بما فيها تلك النسخة، بعد ثلاثين عاما من صدورها الأول في القاهرة.

زاول الكثير من الوظائف الحكومية، التي ابتدأها معلما للصبيان في مدينة اب منتصف الخمسينيات، ثم في عزلة الدعيس ببعدان « البلاد التي ينتمي اليها الشيخ حسن الدعيس»، بعد أن تم نفيه اليها، بعد اعتقاله في اب وسجنه في سجن القلعة بصنعاء، لتخطيطه وقيادته لمظاهرة تأييد للوحدة المصرية السورية، وتنديدا بحكم الائمة في

العام 1958. وبعد ثورة سبتمبر 1962 تولى مناصب مدير الإرشاد في اب ومديراً لإعلام تعز واب ثم وكيلاً لوزارة الإعلام ونائباً لوزير التربية والتعليم ووكيلا للمجالس البلدية في وزارة البلديات، ولم تغير فيه المناصب شيئاً، بل ظل صوتا للناس في هذه المواقع مدافعاً عن حقوقهم. وظل فقيرا كحاله الدائم والمستدام، لأنه أراد أن يكون نفاعاً كانسان، وليس منتفعا كسائر الاجراء والاجيرات. كما يقول البردوني.

حاول خصومه كثيرا التشكيك بتدينه، خصوصا أولئك المرتبطون أو القريبون من دوائر الحكم والسلطة، التي كانت على الدوام في مرمى سهام محمد الربادي النافذة الناقدة، لكنه كان عند من يعرفونه حق المعرفة من أصدقائه وتلامذته من خطباء المساجد المؤثرين بوعظهم الديني، وكان مؤمناً صادقا، يدل على ذلك سلوكه في المجتمع وعفته ونزاهته وبعده عن الكسب الحرام كما يقول محمد عبود باسلامة، الذي أورد أيضا معلومة مهمة عن الأستاذ الربادي بقوله: (إنه كان يجيد النقر على الطار وأداء الإنشاد الديني وإسماعه بصوت جميل، جعلت اصدقاءه يحضرون معه كل الاحتفالات الدينية التي كان يُدعى اليها في اب وخارجها.

الأدباء والمثقفون اليمنيون عرفوا الأستاذ محمد علي الربادي كاتبا وناثراً مختلفاً وشغوفاً بالتاريخ وجدله، وعرفوه كرمز نقابي كبير، حين كان على رأس مؤسسي فرع اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين في محافظة اب ورئيساً له لفترة طويلة، ولهذه الأسباب مجتمعة منحه أعضاء المؤتمر العام الخامس للاتحاد في عدن في خريف 1990 كل أصواتهم ليكون رئيسا للاتحاد، في لحظة مفصلية وخطيرة، حين دخلت البلاد في وحدة اندماجية فورية، ودخل الاتحاد ذاته في السؤال الأكبر ما الذي تبقى منه بعد عشرين عامًا من حضوره في حياة اليمنيين كمرموز ثقافي وسياسي موحد، خارج رغبة العقل السلطوي التشطيري ووعيه؟

متوجبات هذا السؤال وحافزاته، تأسست على قاعدة أن الشعار الذي تكتل تحته الأعضاء والمنتسبون كان يقول «تحقيق الوحدة اليمنية في الصدارة من مهام أجيالنا المعاصرة»، ولأن الوحدة صارت حالة متحققة منذ أواخر ربيع العام نفسه، كان لا بد من إعادة بلورة شعار وخطاب جديدين لعمل الاتحاد، يخفف من الحمولة السياسية الثقيلة التي وضعت على ظهره لعقدين.

مع أولى الخطوات في العهد الجديد بدأ التعثر البائن بالانقسام الفوقي، الذي كان سببه في الأصل عملية الإرباك الكبيرة التي وقع فيها «اليسار» بسبب المتغيرات التي اجتاحت البلاد والمنطقة والعالم، ودخوله الوحدة من دون رؤية واضحة، ومع هذا الوضع لم يستطع الربادي التكيف مع وضع الانقسام في جسم الاتحاد وآثر الانسحاب، مفضلاً أن يخدم الناس من موقع آخر، فترشح لعضوية مجلس النواب عن احدى دوائر مدينة اب في ابريل 1993، فكان ان حصد كل اصوات الناخبين، لكنه بعد أشهر ثلاثة غادرهم الى عالم الأبد، تاركا في نفوسهم حسرة وألما لم تطفئهما السنون الست والعشرون، التي نلتقي اليوم لإحيائها تذكيرا بسيرة واحد من رموز الاستنارة الكبار في اليمن.

لوحة الربادي بريشة الفنان الراحل عبد الجليل السروري

نص

كل شيء يذكرني بك

أمل عمر*

أضواءُ الشاحناتِ الباهتةِ على الطريق السريع
تذكرُني بعينيك
تُوقظُ فيَّ الرغبة في الرحيل
أخمدتُها منذ أن أصبحَ لي بيتٌ وأبناء
وشجرةُ بُرتقال في الحديقة الخلفية
*
هذا الصباح
كلّ شيء يذكرني بك:
مذيع الأخبار
مذاقُ القهوة
مواءُ قطةٍ لا أراها
صوتُ أُغنيةٍ قديمة
يَنبعثُ من محلٍ مغلقٍ منذ عامين.
*
ولنَفترض أننا التقينا،
هل ستَعرفُني؟
أم سأبدو مثل امرأةٍ تُشبهُني
لكنّها لم تَعبُر بعدُ جحيمَ الحب،
ولم تذُق
الموتَ من قُبلةٍ لن تَحدُث؟
*
أُفكرُ أحيانًا،
ماذا لو تأخرتَ خمسَ دقائقَ أُخرى؟
هل كنتُ سأظلُ هُناك،
أنتظرُكَ واقفةً عند زاويةِ الشارع
مستندةً إلى قلبي
كأنه عمودُ إنارة؟
*
وأفكر
ماذا لو أنك أتيت،
ولم أكن أنا التي انتظرتُكَ طوالَ هذه السنين؟
بل شبحٌ يتقمص روحي
خسرَ صوتَه من فرطِ النداء.
*
أنا لا أَخافُ اللقاء
أخافُ أن نلتقي ولا يَحدُث شيء
أن تمرّ بجانبي مثل عِطرٍ رخيص
يذوبُ في هواءِ المكانِ بعد ثوان
*
كمن يعشقُ البحرَ ويُعاني فوبيا الغَرق
كمن يرغبُ في الرَّبتِ على كلبٍ لطيف
لكنَّهُ يَحملُ على جلدِه
ذكرى عضّات قديمة تمنعُهُ الاقتراب.
أَتأمّلُ صورتَكَ داخلَ الإطارِ الزجاجي
ولا اقترب
لأنّي أَخافُ الغرق
وأَخشى العضَّ مرّةً أُخرى.

* السودان

إعلان موت الدرويش

علي المرهج

زياد الرحباني رحمه الله الذي أصرّ على أن يعيش عيشة الدراويش بدأ حياته ينهل موسيقى الرحابنة ويستلهم الصفاء والصدق من صوت والدته "فيروز" التي ألف لها موسيقى أغنية "سألوني الناس عنك يحبيبي" وهو في الرابعة عشر من عمره!!..

ذكرت أنه ألّف الموسيقى ولم يُلحنها، لأنها كانت في الأصل موسيقى من تأليفه وركب عمه منصور الرحباني الكلام عليها، أما اللحن فهو لقصيدة كتبها شاعر ويأتي الملحن ليبدع موسيقى تتوافق معها، ولكن الذي حدث هو العكس.

الملفت للنظر أن زياد الرحباني بكل نزعته الثورية لم يُلحن لفيروز أغنية ثورية، ولكنه لحن وغنى وألّف الكثير من الأغاني والألحان الثورية في مسرحياته.

كان يتميز بمواهب عدة في الكتابة والشعر والتأليف المسرحي والموسيقي والتلحين والتمثيل.

صاحب فكر يساري بامتياز، شغوف بفنه وموسيقاه لأنه يعتقد أن الفن يكشف عن الواقع بكل ما فيه من زيف وإدعاء.

حمل على أكتافه هموم وطنه وهموم فلسطين وكان مسانداً لكل مدافع عن الحق الفلسطيني.

اختار بنفسه أن يعيش حرًا ومناضلًا، وكان بإمكانه أن يعيش عيشة هنية، فهو سليل الرحابنة وابن فيروز بلبل الصباح كما يحلو لنا تسميتها نحن العراقيين.

فضّل أن يعيش "بلا ولا شي" كما تقول كلمات أغنيته، ليتخلى عن كل مجد ورثه ليصنع له مجدًا من نوع آخر. مجد يدافع فيه عن المحرومين المستضعفين في الأرض ليصدح صوته بكلمات ولحن أغنية "أنا مش كافر" التي لم تكن أغنية بقدرة ما كانت صرخة بوجه المستبدين والفاسدين، وهو يرد على من يتهمه ويتهم" عيال الله" من المستضعفين بالكفر، بالقول "أنا مش كافر، بس الفقر كافر" وكأنه يعيد إنتاج المقولة المنسوبة للإمام علي عليه السلام "عجبت لمن لم يجد قوت يومه ولم يخرج شاهرا سيفه".

بقيّ زياد الرحباني وفيًا لفنه، صادقًا مع نفسه ومع الآخرين لا يُجامل في الفن لأنه يعتقد أن الفن رسالة إنسانية لجعل العالم أفضل، ومهمة الفنان الحقيقة تكمن في كشف الزيف في الواقع الذي نعيش فيه لا تزويقه.

الحالة تعبانة يا ليلى.. خطبة ما فيش
إنتِ غنيِّة يا ليلى.. ونحنا دَرَاويش

إنتِ بِوادي ونحنا بِوادي
وكل لحظة تبعّدنا زيادة
أرض الْـعنّا بلا سجادة
وإنت معوّدة تمشي عالريش

كل ما قدمه زياد الرحباني يكشف فيه عن عقم النظام السياسي العربي وتفاخره الطبقي في تمكنه من الهيمنة على مقدرات الشعوب العربية والتحكم بمصيرها، فهم يشبهون ليلاه التي تعودت على العيش الرغيد والمشي على الريش، وليذهب المستضعفون للجحيم!.

هكذا عاش هادي العلوي في حياته درويشًا في محراب الفقر والحرمان والفكر ليعيش بكرامة يشترك معه زياد الرحباني فيما قدمه ليعيش درويشًا في محراب الفن بوصفه الفضاء الأرحب للتعبير عن مصداقية القول والفعل قي الموسيقى والفن.

فيلم برادلي كوبر «هل هذا الشيء مُتاح؟»

يختتم الدورة الـ 63 لـ «نيويورك السينمائي»

نيويورك متابعات:

اختير فيلم برادلي كوبر «هل هذا الشيء مُتاح؟، Is This Thing On?» ليعرض في ليلة ختام الدورة الثالثة والستين لمهرجان نيويورك السينمائي.

يؤدي كل من ويل أرنيت ولورا ديرن، من إنتاج شركة سيرشلايت بيكتشرز، دور أليكس وتيس نوفاك، اللذين وصل زواجهما إلى طريق مسدود.

بحزن ودي، يتفق الزوجان - وهما والدا ولدين صغيرين - على الانفصال. لكن انفصالهما يؤدي إلى حسابات ذاتية غير متوقعة في منتصف العمر، تتجلى دراماتيكيًا في تحول أليكس المهني الجامح ليصبح كوميديًا ارتجاليًا في ويست فيليدج بمدينة نيويورك، حيث يجد اتجاهًا جديدًا وروحًا رفاقية جديدة.

فيلم «هل هذا الشيء مُتاح؟»، الذي يلي فيلمي «مولد نجمة» و«مايسترو» (NYFF61)، «يؤكد براعته في تصوير تعقيدات العلاقات الإنسانية، وبناء فيلم يجمع بين الجرأة والرقة، والفكاهة والرقة»، كما يقول مهرجان نيويورك السينمائي.

يضم فريق التمثيل المساعد كلا من أندرا داي، وكريستين إيبرسول، وسيارا ن هندز، وشون هايز، وبيتون مانينغ، وآمي سيداريس، بالإضافة إلى نجوم الكوميديا الارتجالية من نيويورك، كلوي رادكليف، وريجي كونكويست، وجوردان جنسن، الذين يُضفون لمسةً من الأصالة على وسط المدينة.

قال كوبر: «يشرفنا ويسعدنا أن نعرض فيلمنا لأول مرة في مهرجان نيويورك السينمائي. في وقت سابق من هذا العام، أتيحت لنا فرصة رائعة لتصوير هذه القصة في جميع أنحاء المدينة، لذا من المثير جدًا عرضه لأول مرة في مساء ختام المهرجان. حيث تُضفي مدينة نيويورك حيويةً لا تُضاهى على كل جانب من جوانب صناعة الأفلام».

قال دينيس ليم، المدير الفني لـ نيويورك السينمائي، إن المهرجان «متحمّس لاختتامه بفيلم برادلي كوبر الثالث الرائع. «هل هذا الشيء مُتاح؟» فيلمٌ ذو أبعاد ومفاجآت عديدة: تحيةٌ رائعةٌ لساحةً الكوميديًا في مدينة نيويورك، ودراسةٌ حساسةٌ لسخط منتصف العمر، وكوميديا معاصرةٌ عن الزواج من جديد، تتميز بتوازنٍ مثاليٍ بين الفكاهة والمشاعر